محمود درويش والتضاد التعبيري

في قصيدة "نداء من القبر"(*)

د. صـالح خليـل أبو أصـبع

نص القصيدة :

- 1 -

– أنا ... عمر موتي ثماني سنين
– وعمر أبي مثل عمري
– نناشد أحباءنا الطيبين
– وكل الذين
– يريدون أن يكبروا
– على الأرض لا تحتها
– وأن ينضج القمح في حقلهم
– وهم يزرعون وهم يحصدون
– وأن يخمر الخبز في بيتهم
– وهم يخبزون، وهم يأكلون
– نناشدهم لا تناموا
– لكي تكبروا
– على الأرض لا تحتها
– وحذار... هنا الشمس
– دود وطين
– وتحسب أعمارنا بالمنون
– أنا .. عمر موتي ثماني سنين
– وعمر أبي مثل عمري.

(*) قصيدة عن مجزرة كفر قاسم من ديوان: يوميات جرح فلسطين.

- 2 -

- سألناكم:
- لا نريد على القبر ماء وزهراً
- فلا شيء حي سوى
- قطيع أفاع... ودود
- سألناكم:
- لا نريد ثياب حداد
- فلا لون في القبر إلا
- السواد:
- سألناكم: لا نريد
- مواويل حزن طويلة
- فنحن هنا راقدون
- وعودتنا مستحيلة.

- 3 -

○ سألناكم: أن تغنوا
- لأرضكم الباقية
- وترووا حكايتنا القانية
- لأبنائكم...
- لتبقى على علم المجرمين
- دمانا
- إشارة درب إلى الهاوية
- سألناكم: أن تصدوا
- الرصاص عن الآمنين
- لينجو أحياؤكم...
- والذين غداً يولدون
- فما زال نبع الجريمة ثرّاً
- أهيلوا عليه التراب
- وكونوا

- على حذر صامدين.

تحليل القصيدة :

قصيدة محمود درويش "نداء من القبر" ليست واحدة من أعظم قصائده أو أهمها، ولكنها إحدى قصائده العديدة التي تمتلئ بنبض الإيقاع وعمق الفكرة وروح المقاومة مع بساطة في الأداء.

تتكون قصيدته هذه من مقاطع ثلاثة، ولكن أكان ضرورياً أن تأتي كذلك؟ في محاولتنا لفهم القصيدة لعلنا نجيب عن هذا التساؤل.

الشا عر يتناول فكرة بسيطة، ليخاطب بها عاطفة وعقل جمهوره معاً...

"ها هو شهيد من شهداء كفر قاسم، استيقظ من موته بعد ثماني سنين من المجزرة قام محتجاً على أبناء شعبه الذين ما زالوا يلبسون ثياب الحداد ويغنون المواويل الحزينة، وطالبهم الكف عن ذلك، لأن الحزن لا يجدي، ولا يجدي غير الوقوف أمام الأعداء مصدر الجريمة، والصمود في وجه مغتصبي وطنه".

هذه هي القصيدة، نداء مباشر من أحد الشهداء إلى الأحياء كي يكونوا أحياء حقاً. لسان الشهيد هنا ينطق بقوة وأحياناً بعبارات مباشرة، ليعبر عن القضية التي استحضر من أجلها.

فماذا قالت القصيدة؟ وكيف عبر الدرويش عن ذلك؟

القصيدة كما أشرنا، تتناول استحضار شهيد من قبره جاء ليخاطب الأحياء، وهذا الموقف الأسطوري ليس هو بحد ذاته القضية، بل يجعلنا نتساءل ماذا يمكن أن يحقق؟

إن استيقاظ الشهيد – الموقف الأسطوري – ونداءه للأحياء أمر غير منطقي، ولكن يقف هناك منطق آخر موازٍ للامنطقية الأسطوري... فالشهداء دوماً يتركون دماهم كنداء للثأر، وهنا يصبح نداء الشهداء للأحياء كجانب أسطوري غير منطقي يوازي دماء الشهداء التي تدعو للثأر. ويبدأ الشاعر بتقديم الشهيد إلينا.

"أنا عمر موتي ثماني سنين

وعمر أبي مثل عمري..." (يوميات جرح فلسطيني -65-)

هكذا تبدأ "القصيدة – المأساة" حيث يتقدم الشهيد دون استئذان ليعرف بنفسه "مات منذ ثماني سنين".

ولكن ماذا يعني الموت هنا والآلاف يموتون عرباً وغير عرب؟ وتجسيداً للمأساة، وإيحاء بما وراء هذا الموت "كان عمر أبي مثل عمري" مات أبوه معه، هنا تكمن المأساة إذ تموت في كفر قاسم أسر بأكملها.

ومنذ البيت الأول تنساب إلى قلوبنا مأساة الشهيد التي تناولها الشاعر بإيقاعات هادئة، مستخدمة تفعيلات المتقارب "فعولن- فعولن-فعولن-فعولن" المتكررة، وبقافية تلتزم السـكون، لتعطي رتابة تكرار التفعيلة والتزام السكون بالقافية سكوناً ورتابة يشبهان ذلكما السكون والرتابة المخيمان على القبور صمتاً هو أشبه بصمت الموتى حتى لو كانوا شهداء...

ويبدأ الشـهيد حديثاً هادئاً لا يبتعد في لهجته كثيراً عن لغة الحديث اليومي "الأحياء- الطيبين" ونحن دوماً نتحدث عن الرجل الطيب ونتحدث عن نضـج القمح في الحقول، والزراعة والحصـاد... وإن جاءت كلها بترتيب مختل، فالزراعة قبل الحصاد والحصاد بعد النضج... ويتحدث عن الخبز "الخامر" الذي يصلح للأكل، هذه أمور كلها هي حديث الناس في معاشهم، ويبدأ الشهيد في مناشدتهم وكلمة "المناشدة" لا تعني الإلزام، إن الشهيد – الميت لن يخرج من قبره حاملاً للسيف ولا لمكبر الصوت، وإنما سوف يخرج هادئاً يناشد أحياءه الطيبين.

ويستخدم الشاعر في عرض قضيته أسلوباً يمكن وصفه "بالتضاد التعبيري" حيث يأتي بالشيء وضده، تعميقاً للمأساة وفصلاً تاماً بين قضية الشهداء وقضية الأحياء الذين لا يتحركون من أجل وطنهم.

(الأحياء – الأموات)... (الزهور على قبور الأموات – الأفاعي والدود)... (مواويل الحزن – الغناء)... (الظلمة – الضياء).

** فالشـهيد نجد عنده في القبر: (الموت، ظلمة القبر، الأفاعي، الدود، الطين، العمر الذي يحسـب بسـنوات الموت، الرقدة الطويلة).

** في المقابل ماذا يبقى للأحياء... وماذا يريد الشهيد لهم أن يصنعوا؟

شهيدنا هنا مجرب، خبر الحياة والموت، لذا يكون استخدامه أسلوب النصح والمناشدة بمثابة الأمر:

"نناشد أحياءنا الطيبين

وكل الذين يريدون أن يكبروا

على الأرض لا تحتها" ص65-

هؤلاء الذين يوجه الشهيد إليهم مناشدته هم الأحياء – فعلاً – بإرادة الحياة التي تصنع المستقبل، لا الأحياء – الأموات، الذين يستسلمون لأقدارهم ولعل الشهيد الذي أحكم عليه الرتاج بصندوق الموت المغلق لم يتمكن من تحقيق هدفه وأمنيته فخرج لمناشـدة أبناء قومه الأحياء... ولا ننسى أن الدين الإسـلامي يعتبر الشـهداء "أحياء عند ربهم يرزقون"... وقد تكون هذه الآية الكريمة هي إحدى مخزونات الشـاعر الفكرية التي جعلت شـهداءه أحياء يخاطبون الأحياء عما هو حقيقة بهم، فالأحياء لهم الحياة بقمحها وخبزها، كإرادة للحياة المادية:

- ″نناشد أحياءنا الطيبين
- وكل الذين
- يريدون أن يكبروا،
- على الأرض لا تحتها،
- وأن ينضح القمح في حقلهم،
- وهم يزرعون وهم يحصدون،
- وأن يخمر الخبز في بيتهم،
- وهم يخبزون، وهم يأكلون،
- نناشدهم: لا تناموا
- لكي تكبروا، على الأرض لا تحتها"   ص-65

فالشاعر وهو يؤكد - عن طريق شهيده - أن يصنع مواطنوه الأحياء مستقبلهم بإرادة قوية وهم رافعو رؤوسهم.

- يريدون أن يكبروا على الأرض لا تحتها
- فإنه يطالبهم باليقظة والعزيمة والإرادة المقاتلة والصمود وذلك بالعمل.
- "نناشدهم: لا تناموا
- لكي تكبروا، على الأرض لا تحتها"

هنا نجد الشاعر استطرد في فكرته تلك، وكان بإمكانه أن يوجز فيها إذ إن قوله "يريدون أن يكبروا" صورة بسيطة وجميلة تعبّر وتغني عن استطراداته:

- وأن ينضج القمح في حقلهم
- وهم يزرعون وهم يحصدون

- وأن يخمر الخبز في في بيتهم، وهم يخبزون وهم يأكلون.

ذلك لأنه أعاد مرة أخرى تلخيص ما قاله:

- "نناشدهم: لا تناموا
- لكي تكبروا، على الأرض لا تحتها"

ومرة أخرى حاول تكثيف ما أراده بالتضاد التعبيري وإن كان ذهنياً خالصاً حيث يقول:

- "نناشدهم: لا تناموا لكي تكبروا
- على الأرض لا تحتها...
- حذار ... هنا الشمس دود وطين
- وتحسب أعمارنا بالمنون...
- أنا عمر موتي ثماني سنين...
- وعمر أبي مثل عمري" 65-66

هنا يحذرهم الشهيد من شمسه التي هي في القبر دود وطين، ويحذرهم من عمره الذي يحسب بالموت، وهو يريد لهم الشمس الساطعة شمس الحياة التي تنكشف معها حقيقة وضعهم، ويريد كذلك أن تحسب أعمارهم بسنوات الحياة وهم فوق الأرض لا تحتها... ويمكننا الإشارة هنا إلى هذه الصورة البسيطة التي جاء بها للتعبير عن أفكاره.

"نناشدهم لا تناموا لكي تكبروا" وهي تعبير عن المستقبل وإرادة الحياة والعمل، "تكبروا على الأرض لا تحتها" تحمل أيضاً نفس المعاني , "الشمس دود وطين" تعبير عن تلك الظلمة والفناء واللاجدوى اللائي يكتنفن حياة الميت.

وفي نهاية المقطع الأول، يجعلنا الشاعر نتساءل كيف تكون الحياة؟ والمأساة ما زالت قائمة.

- "أنا عمر موتي ثماني سنين،
- وعمر أبي مثل عمري"...

ويأتي تكرار مطلع قصيدته هذا فنياً، إذ يقف شاهداً - كوسيلة فنية - على المأساة القائمة وناقوساً يحذر من خطرها. بل وتتعدى فائدته أكثر من ذلك، بحيث يصبح واصلاً نفسياً يحاول به الشاعر أن يوثق الوشائج النفسية لكيان القصيدة العضوي بكامله.

- **"أنا عمر موتي ثماني سنين...**
- وعمر أبي مثل عمري"

إذا كان المتحدث ميتاً ومعه أبوه، وإذا كان الأحياء قد اعتادوا أن يضعوا الماء والزهر على القبور ويلبسوا الحداد ويغنوا المواويل الحزينة فإن الشهداء يطرحون تساؤلات على الأحياء ليكونوا أكثر واقعية منهم.

- "سألناكم: لا نريد...
- على القبر ماء وزهراً
- فلا شيء حي سوى
- قطيع أفاع ودود"   ص-66

إن الشــهداء يرفضــون الماء والزهر، حيث لا يوجد شيء حي في المقابر ســوى الأفاعي والدود، ويطلبون الماء والزهر للأحياء تعبيراً عن إرادة الحياة وإشراقة المســتقبل، وليدرك الأحياء أن الماء والزهر ليســا للدود ولا للأفاعي التي قتلت الشهداء في الحياة، ونهشت لحمهم في الموت.

ويكون تساؤل الشهيد الاستنكاري نوعاً من التضاد الذهني الذي يشمل المقطع الثاني بكامله:

- "سألناكم: لا نريد
- على القبر ماء وزهراً
- ....
- فنحن هنا راقدون
- وعودتنا مستحيلة"...

فإذا كان سؤاله "للأحياء بأنه لا يريد منهم، ولا يريد ولا يريد..." فإن نقيض النفي، هو ما يريده لهم. بمعنى أن التضـاد الذهني الذي تخلفه صـور النفي المتعددة هذه إنما تحمل في طياتها معنى إيجابياً وحيداً هو صـورة لما يريده الشهداء للأحياء ...

ولا يخلو هذا المقطع كســابقه، من اســتطراد في التصــوير فثياب الحداد بمدلولها الحزين تغني عن مواويل الحزن الطويلة بل ويقوم كذلك باستخدام أسلوب تقريري يخنق الصور التي تسبقها.

- "فلا لون بالقبر إلا السواد"
- "عودتنا مستحيلة..."

في المقطع الثالث من القصيدة يجيب الشاعر على بعض تلك التساؤلات التي طرحها في المقطع الثاني:

- "سألناكم أن تغنوا لأرضكم الباقية
- وأن تغضبوا، وتروا حكايتنا القانية
- لأبنائكم...
- لتبقى على علم المجرمين دمانا...
- إشارة درب إلى الهاوية...
- سألناكم أن تصدوا الرصاص عن الآمنين...
- لينجو أحياؤكم... والذين غداً يولدون...
- فما زال نبع الجريمة ثرّاً...
- أهيلوا عليه التراب
- وكونوا على حذر صامدين..."   ص67-

إذن لا المواويل الحزينة مجدية ولا الزهر على القبور مؤمل، ولا الحداد بلونه الأســود مجد، إنما يجب أن تغنوا للأرض، وأن تغضـبوا لتصـنعوا الثورة وتربوا أبناءكم على حكايات الوطن، واللون الأسـود لا بد أن يقابل اللون الأحمر لتظل دماء شهدائنا شارة لا تنسى تصبغ علم الأعداء...

تمّت صـورة هذا التضـاد الموحي، بين ما يفعله الأحياء وما يريد الشـهداء لهم أن يفعلوه، لن القضـية التي استشهد من أجلها الشهداء في كفر قاسم لم تنته بعد وتعني أن كثيراً من المجازر ستقع في أية لحظة.

"فما زال نبع الجريمة ثرّاً".

والنبع بطبيعته عطاء فياض مستمر حتى ولو كان للجريمة، لذا كان على الأحياء عبء مسئولية ذات شقين: تجاه أنفسهم وتجاه وطنهم ومستقبله.

- **"سألناكم أن تصدوا الرصاص عن الآمنين...**
- لينجوا أحياؤكم.. والذين غداً يولدون".

وهذا لن يتم بدون حذر من الأعداء إذ علينا أن نهيل عليهم التراب كي نطمر نبعهم متمســكين بالصــمود كأحد أدوات الانتصار. هذا المقطع لم يُجب على كل التساؤلات الواردة في المقطع الثاني ففيه مثلاً يقول:

"فنحن هنا راقدون وعودتنا مستحيلة".

والتضاد الذهني الذي يولده هذا البيت يكمن في "أن الشهداء الذين اقتلعوا من أرضهم بالموت وتستحيل عودتهم إليها، يقابلهم الأحياء الذين اقتلعوا من أرضهم بالقهر ولكن عودتهم ممكنة".

فنلحظ بهذا المقطع ارتفاع نبرة الحديث عن سابقيه ولعل حديثه عن الصمود والمقاومة والدعوة للثورة على الغاصب تبرر هذه النبرة.

نشـير هنا إلى اسـتخدامه لكلمة "نبع" للدلالة على العدو "نبع الجريمة" وهذه صـورة لم يوفق شـاعرنا في استخدامها، فإن كلمة النبع بما لها من معاني تتسم بالطبيعة، والعطاء المتدفق والتجدد كانت غير مناسبة، وكان من الأوفق لو اسـتخدم كلمة توائم ما قصـد إليه كمثل "وكر" ذلك لأن النبع حتى لو طهرناه بالتراب، فإن ينابيعه لن تفتأ فتتفجر ثانية.

وهذا الحديث يجرنا للإشارة إلى لغته البسيطة التي استخدمها وهي تقارب لغة الحديث اليومي وذلك كما يرى ت. س. اليوت لا يعيب الشاعر فإن "مهمة الشاعر أن يستعمل اللغة الشائعة في محيطه – اللغة التي توثقت الألفة بينه وبينها".

إننا لا نريد من الشاعر أن يعطينا نسخة تامة عن لغته المحكية، لغة أهله وأصدقائه وأبناء مقاطعته، غير أن ما يجده في محيطه هذا، هو المادة التي يصنع منها شعره، إنه كالنحّات يجب أن يظل أميناً للأداة التي يشتغل بها،

ثم إنه من الأصوات التي وعاها يجب أن يوقع أنفاسه ويبعث فيها ما تكتمل به من انسجام"(ص-8- الشعر بين نقاد ثلاثة).

ويمكننا القول بأن الشاعر هنا استخدم اللغة البسيطة السهلة البسيطة مبتعداً عن التكلف وباعثاً في قصيدته الانسجام، مدركين الدور الجماهيري الذي تحققه قصيدة في الأرض المحتلة بلغة تقترب مفرداتها من لهجة الحديث اليومي، وقد أشرنا إلى استخداماته اللغوية البسيطة فيما سبق.

في النهاية يمكننا التساؤل ماذا حققت القصيدة في استخدامها أسلوب المقاطع..؟

تابعنا القصيدة في مقاطعها الثلاثة، وأشرنا في البدء أن القصيدة هي حديث شهيد للأحياء، ويمكننا القول بأن الحديث اتسم بمنطقية واقعية ذات ثلاثة جوانب فهو عبارة عن:

نداء – وتساؤل – ثم إجابة

وكان منطقياً أن تقسم القصيدة إلى ثلاثة مقاطع:

* المقطع الأول: هو النداء ويبدأ الشهيد فيه بالتعريف بنفسه ثم يناشد الأحياء.

* المقطع الثاني: هو التساؤل الأساسي والذي يشكل التضاد التعبيري الرئيسي ويبدأ بقوله:

" سألناكم لا نريد على القبر ماء وزهراً".

* المقطع الثالث: هو الإجابة وإن اشتمل في بداية حديثه على سؤال للأحياء لكنه حقيقة إجابة عن التساؤلات في المقطع الثاني إذ يبدأ بقوله:

"سألناكم أن تغنوا لأرضكم الباقية"....الخ.

هذه هي قصيدة محمود درويش ببساطتها وبقدرتها على إيصال الفكرة إلى الجمهور وقربها من تذوقه أيضاً.